

دراسات التابع والتاريخ ما بعد الكولونيالي

Subaltern Studies and Postcolonial Historiography

يتقصى البحث الأجنحة التاريخية الأصلية لدراسات التابع، عند ملهمها راناجيت جها خصوصاً، ويرى أنّها لم تكن مجرد نسخة أخرى من التاريخ الماركسي الراديكالي، على النحو الذي كان عليه التقليد الإنكليزي الماركسي في كتابه "التاريخ من أسفل"، بل كانت تتسم أولاً، وبالضرورة، بنظرة ما بعد كولونيالية، وزادها تعمقاً اتصالها بنقد الاستشراق لدى إدوارد سعيد، وبفكيكية غاياتري سيفاك، وتحليل هومي بابا للخطاب.

طرحت دراسات التابع، منذ انطلاقتها، أسئلة حول كتابة التاريخ، وجعلت الافتراق الجذري عن التقاليد التاريخية الماركسية الإنكليزية أمراً لا مفرّ منه. وتتركز المناقشة في هذا البحث على كتابات يمكن عدّها النصوص المؤسّسة للمشروع، لتبيان أنّ دراسات التابع لم تكن مجرد أخذٍ لطرائق البحث التاريخي التي سبق أن صاغتها تقاليد "التاريخ من أسفل" الماركسية. صحيح أنّ دراسات التابع كانت في جانب منها سلبية هذا النّسب، لكن طبيعة الحداثة السياسية في الهند الكولونيالية جعلت من هذا المشروع في كتابة التاريخ شيئاً لا يقلّ عن نقد فرع التاريخ الأكاديمي، ذلك النقد الملتزم الذي لا مناص منه.

كلمات مفتاحية: الرأسمالية، ثورة الفلاحين، الجماعات المسيطرة، التاريخ من أسفل، مدرسة كامبردج، الماركسية، تاريخ الهند.

The author focuses on Subaltern Studies, and pays particular attention to Neo-Marxist Ranajit Guha, widely credited with establishing this field. The author further argues that subaltern studies would escape the confines of Marxism and would found itself inescapably linked with post-colonial studies. This, suggests the paper, means that subaltern studies in fact surpassed a tradition of writing "history from below", which had been pioneered by British Marxist writers. It instead had a post-colonial view, linked to Edward Said's critique of orientalism, as well as to Homi Bhabha's discourse analysis and Gayatri Spivak's ideas. From its onset, Subaltern Studies has asked questions about the methods of writing history, and separated inevitably from the traditional English Marxist method of chronicling working-class history. While Subaltern Studies indeed descended from this tradition, it quickly became a critique of the academic field of history.

Keywords: capitalism, peasant rebellions, ruling classes, history from below, Cambridge School, Marxism, History of India

* باحث ونائب مدير وحدة ترجمة الكتب في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - لبنان.
Researcher and deputy director of the book translation unit, Arab Center for Research and Policy Studies, Lebanon.

مقدمة⁽¹⁾

بدأت **دراسات التابع: كتابات في التاريخ والمجتمع الهنديين** (*Subaltern Studies: Writings on Indian History and Society*) في عام 1982 على هيئة سلسلة من التدخّلات في بعض النقاشات المتعلقة بكتابة التاريخ الهندي الحديث⁽²⁾. وكان ملهمها هو رانا جيت جحا Ranajit Guha (1923 -)، المتخصّص بتاريخ الهند الذي كان يدرّس حينئذ في جامعة سسكس. وتألفت هيئة تحرير **دراسات التابع**، حتى عام 1988 الذي تقاعد فيه جحا من الفريق، من جحا وثمانية من الباحثين الشباب المقيمين في الهند والمملكة المتحدة وأستراليا⁽³⁾. وبات للسلسلة الآن حضور علمي يتخطى الهند أو جنوب آسيا كنطاقٍ للتخصص الأكاديمي. وتجاوز مداها الفكري ذلك المدى الذي يبلغه فرع التاريخ؛ إذ أبدى منظّرون ما بعد كولونياليين من خلفيات تخصصية مختلفة اهتمامًا بهذه السلسلة. وكثيراً ما نوقشت، مثلاً، تلك الطرائق التي ساهم بها كتاب **دراسات التابع** في الانتقادات المعاصرة للتاريخ والقومية والاستشراق والمركزية الأوروبية وما أدّوه من دورٍ في بناء المعرفة العلمية الاجتماعية. وبالمقابل، كانت هنالك أيضًا مناقشات لـ **دراسات التابع** في كثيرٍ من الدوريات المعنية بالتاريخ وعلم الاجتماع⁽⁴⁾. ونُشرت مختارات من السلسلة باللغات الإنكليزية والإسبانية والبنغالية والهندية وهي قيد الصدور بالتاميلية واليابانية⁽⁵⁾. وتأسست جمعية أميركية لاتينية لدراسات التابع في أميركا الشمالية في عام 1992⁽⁶⁾. ولا نجافي الصواب لو قلنا إنّ تعبير "دراسات التابع" الذي سبق أن كان اسم سلسلة من المنشورات تتناول التاريخ الهندي، بات الآن تسمية عامة لحقل من الدراسات غالبًا ما يُنظر إليه على أنه وثيق الصلة بما بعد الكولونيالية.

كيف أمكن لمشروعٍ بدأ كدخّلٍ محدّدٍ ومركّزٍ في الفرع الأكاديمي المعنيّ بالتاريخ (الهندي) أن يقترن بما بعد الكولونيالية؛ ذلك الميدان من الدراسات الذي موطنه الأصلي أقسام الأدب؟ أحاول الإجابة عن هذا السؤال من خلال مناقشة الكيفية والمعنى اللذين يمكن بهما أن يُنظر إلى **دراسات التابع** كمشروع ما بعد كولونيالي في كتابة التاريخ. وعليّ أن أوضح هنا أنّ تركيزي على العلاقة بين ما بعد الكولونيالية والتاريخ بغفل المساهمات التي قدّمها فروعٌ أخرى إلى حقل دراسات التابع؛ مثل العلوم السياسية والدراسات القانونية والأنثروبولوجيا والأدب والدراسات الثقافية والاقتصاد. وما يحفز هذا المقال هو سؤال يتركز على فرع التاريخ: ما الطرائق التي يمكن بها قراءة الأجنحة التأريخية الأصلية لـ **دراسات التابع** بوصفها ليست مجرد نسخة أخرى من التاريخ الماركسي/الراديكالي بل على أنّها تتسم بنظرةٍ ما بعد كولونيالية بالضرورة؟ وأنا أركّز على فرع التاريخ لسببين: أولهما، أنّ العلاقة بين حقل الكتابة ما بعد الكولونيالية الجديد والتاريخ لم تحظ إلى الآن بالاهتمام الذي تستحقه، وثانيهما، هو الردّ على المنتقدين الذين يرون أنّ **دراسات التابع** كانت ذات يوم

1 شكري العميق لكل من رانا جيت جحا وأن هاردغروف وسانجاي سيث والزملاء في **دراسات التابع** على النقاشات التي أعانتي في كتابة هذه المقالة التي ستظهر نسخة باكرة منها في مختارات حول الدراسات ما بعد الكولونيالية تنشرها "بلاكويل" Blackwell، في المملكة المتحدة. (هذا النص ترجمة للنص الأصلي المنشور عام 2000، في: Dipes Chakrabarty, "Subaltern Studies and Postcolonial Historiography," *Nepantla: Views from South*, Volume 1, Issue 1 (2000), pp. 9-32. المترجم).

2 أكتب **دراسات التابع** على هذا النحو، بخطّ ثخين، حين تشير إلى مجلدات السلسلة التي تحمل هذا الاسم أو إلى السلسلة ذاتها. أما حين تردّ بخطّ عادي، دراسات التابع، فهي تشير إلى المشروع الفكري الذي انطوت عليه أو إلى حقل الدراسات الذي عُنيّت به أو إلى هيئة تحريرها.

3 تتألف هيئة التحرير الآن من الأعضاء التالية أسماؤهم: شهيد أمين Shahid Amin، ديفيد أرنولد David Arnold، غوتام بادرا Gautam Bhadra، ديبيش شاكرابارتي Dipes Chakrabarty، بارثا شاترجي Partha Chatterjee، ديفيد هارديمان David Hardiman، سوديتا كافيراج Sudipta Kaviraj، شایل مايارام Shail Mayaram، جيان باندي Gyan Pandey، م. س. س. بانديان M. S. S. Pandian، جيان براكاش Gyan Prakash، سوزي ثارو Susie Tharu، غاياثري شاكراפורتي سييفاك Gayatri Chakravorty Spivak، أجاى سكاريا Ajay Skaria. وكان سُميت سركار Sumit Sarkar عضو الهيئة لفترة محددة في ثمانينات القرن العشرين.

4 انظر، مثلاً، الندوة التي عُقدت حول **دراسات التابع** في عدد كانون الأول/ديسمبر 1994 من مجلة *American Historical Review* وساهم فيها ثلاثة مؤرخين من جنوب آسيا (جيان براكاش) وأفريقيا (فريدريك كوبر Frederick Cooper) وأميركا اللاتينية (فلورنسيا مالون Florencia Mallon).

5 Guha and Spivak 1988; Cusicanqui and Barragán 1998; Chatterjee and Bhadra 1997; Amin and Pandey 1996.

6 انظر بيانها التأسيسي في بيغلي وأوفيدو وأرونا 1993.

ذلك التاريخ الماركسي "الجيد" على النحو الذي كان عليه التقليد الإنكليزي في كتابة "التاريخ من أسفل"، لكنها صلت طريقها حين اتصلت باستشراف إدوارد سعيد Edward Said، وتفكيكية غاياتري سيفاك، وتحليل هومي بابا Homi Bhabha للخطاب⁽⁷⁾. وكان عارف ديرليك Arif Dirlik (1996, 302) قد رأى، في نقد واسع المدى للمفكرين ما بعد الكولونياليين، أن ضروب التجديد التي أدخلتها **دراسات التابع** إلى كتابة التاريخ، ليست، على الرغم من الترحيب بها، سوى تطبيقات لطرائق كان المؤرخون الماركسيون البريطانيون روّادها، وإن تكن "الحساسيات العنصرية" قد عدلتها. يقول ديرليك:

معظم التعميمات التي تظهر في خطاب المفكرين ما بعد الكولونياليين في الهند قد تبدو جديدة في التأريخ الهندي لكنها ليست بالاكشافات إذا ما نُظِرَ إليها من منظورات أوسع ... الكتابة [الكتابات] التاريخية التي يقدمها مؤرخو **دراسات التابع** ... تمثل تطبيقاً على التأريخ الهندي لاتجاهات في كتابة التاريخ كانت واسعة الانتشار في سبعينيات القرن العشرين بفضل مؤرخين اجتماعيين مثل إ. ب. طومسون E. P. Thompson وإريك هوبسباوم Eric Hobsbawm وغيرهما كثير.

لا رغبة لدي في أن أبالغ بمزاعم باحثي **دراسات التابع** أو أن أنكر ما يمكن أن يكونوا قد تعلموه بالفعل من المؤرخين الماركسيين البريطانيين. ما أسمى إليه هو تبيان أن هذه القراءة لـ **دراسات التابع** - باعتبارها مثالاً على مؤرخين هنود أو عالِمَين يكتفون بالتقاط التبعات المنهجية التي سبقهم إليها التاريخ الاجتماعي الإنكليزي وتطبيقها - هي قراءة تسيء الحكم بشدة على ما كانت السلسلة تدور حوله. وما أراه هو أن **دراسات التابع** طرحت، منذ انطلاقتها، أسئلة حول كتابة التاريخ جعلت الافتراق الجذري عن التقاليد التاريخية الماركسية الإنكليزية أمراً لا مفر منه. وسوف أدفع مناقشتي قُدماً بالتركيز بصورة أساسية على أعمال المؤرخ راناجيت جحا في الفترة التي شغل فيها منصب رئيس التحرير المؤسس لـ **دراسات التابع**. وسوف أناقش من كتابات جحا تلك التي يمكن عدّها النصوص المؤسّسة للمشروع.

دراسات التابع والجدال حول التاريخ الهندي الحديث

أبدأ برسم الخطوط العامة لبعض الجدالات الرئيسية حول التاريخ الهندي الحديث التي كانت **دراسات التابع** في أيامها الأولى قد تدخّلت فيها. والموضوع الأكاديمي الموسوم بـ "التاريخ الهندي الحديث" هو تطور حديث نسبيًا، وثمره بحث ونقاش في جامعات شتى في الهند والمملكة المتحدة والولايات المتحدة وأستراليا وسواها بعد انتهاء الحكم الإمبراطوري البريطاني في آب/أغسطس 1947. وحمل هذا الميدان البحثي في طوره الأول هذا كلّ علائم صراع جارٍ بين نزعات مرتبطة بالتحيزات الإمبريالية في التاريخ الهندي ورغبة قومية في تصفية الاستعمار الماضي عبّر عنها مؤرخون في الهند. وكان منطقيًا بالطبع أن تُعَبَّأ الماركسية إلى جانب المشروع القومي الرامي إلى تصفية الاستعمار الفكرية⁽⁸⁾. وكانت أعمال مثل عمل بيان شاندرنا Bipan Chandra **نشوء القومية الاقتصادية في الهند وتطورها** (1969)، وعمل أنيل سيل Anil Seal **نشأة القومية الهندية** (1968)، وعمل أ. ر. ديساي A. R. Desai **الخلقية الاجتماعية للقومية الهندية** (1966)، والكتاب الذي حرره د. أ. لو D. A. Low **مناقشات في تاريخ جنوب آسيا الحديث** (1968)،

7 هذه هي اللازمة المتكررة في قدر كبير مما كتبه سُميت سركار (Sarkar 1997) في نقد **دراسات التابع**.

8 انظر مناقشتي العلاقة بين القومية والماركسية في التأريخ الهندي في:

"Marxism and Modern India," in Alan Ryan 1992, 79-84.

ويقدّم سنجاي سيث (Seth 1955) تحليلًا جيدًا للصلات التاريخية بين الفكر الماركسي والأيديولوجيات القومية في الهند البريطانية.

وعدد من المقالات المؤثرة التي نشرها برنارد كوهن Bernard Cohn (وجُمعت الآن في كتابه **أثروبولوجي بين المؤرخين** [1988])، والجدالات حول تقييم موريس ديفيد موريس Morris David Morris نتائج الحكم البريطاني في الهند، وأعمال باحثين آخرين في ستينيات القرن العشرين، قد طرحت أسئلة جديدة وخلافية في شأن طبيعة الحكم الاستعماري في الهند ونتائجها. هل يعود لبريطانيا الإمبريالية الفضل في جعل الهند بلدًا ناميًا وحديثًا وموحدًا على الرغم من كل شيء؟ هل كانت النزاعات الهندوسية-المسلمة التي أسفرت عن تشكيل دولتي باكستان والهند عاقبةً لسياسات فرّق تشد البريطانيّة أم انعكاسًا لانقسامات داخلية خاصة بمجتمع جنوب آسيا؟ عادةً ما تصوّر وثائق الحكم البريطاني في الهند - وتقاليد كتابة التاريخ الإمبراطوري - الحكم الكولونيالي على أنه كان نافعا للهند وشعبها. وهي تشيد ببريطانيا لأنها جلبت لشبه القارة كلاً من الوحدة السياسية والمؤسسات التعليمية الحديثة والصناعات الحديثة والقومية الحديثة وحكم القانون، وما إلى ذلك. لكن المؤرخين الهنود في ستينيات القرن العشرين تحدّوا تلك النظرة، مع أنّ كثيرًا منهم كان ينتمي إلى جيل ترعرع في السنوات الأخيرة من الحكم البريطاني. ورأوا بدلاً من ذلك أنه كان للكولونيالية آثار ضارة على التطور الاقتصادي والثقافي. ورأوا أيضًا أنّ الحداثة والرغبة القومية في الوحدة السياسية لم تكن أعطيات بريطانية للهند بقدر ما كانت ثمرة نضال الهنود أنفسهم.

لا غرابة، إذًا، في أنّ القومية والكولونيالية برزتا بوصفهما نطاقا البحث والجدال الرئيسيين اللذين حدّدا حقل التاريخ الهندي الحديث في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته. وكان في طرف أول من هذا الجدال المؤرخ الكامبردجي أيل سيل، الذي صوّر "القومية"، في كتابه **نشأة القومية الهندية** الصادر في عام 1968، على أنها عمل نخبة صغيرة ترعرعت في المؤسسات التعليمية التي أقامها البريطانيون في الهند. ورأى أنّ هذه النخبة "تنافست" مع البريطانيين و"تعاونت" معهم في بحثها عن السلطة والامتياز. ولم تمض سنوات قليلة حتى دُفعت هذه الفكرة إلى أقصاها في كتاب عنوانه **المحلّة والمنطقة والأمة** (1973) ساهم فيه سيل وزميله جون غالاجر John Gallagher وجمّع من طلابهما في درجة الدكتوراه، حيث قلّلت كتاباتهم من شأن الدور الذي تنهض به الأفكار والمثّل في التاريخ وأبدت نظرة ضيقة للغاية تجاه ما يشكّل "مصلحة" الفاعلين التاريخيين السياسية والاقتصادية. ورأوا أنّ اختراق الدولة الكولونيالية بنى السلطة المحلية في الهند - تلك الخطوة التي وقفت وراءها مصالح الراج⁽⁹⁾ الذاتية المالية وليس أي دوافع تتعلق بالإيثار - هو ما اجتذب النخب الهندية، في النهاية، وبدرجات متفاوتة، إلى سيرورة الحكم الكولونيالي. وبحسب هذا الرأي، فإنّ انخراط الهنود في المؤسسات الكولونيالية أطلق تدافعًا بين النخب المحلية التي اجتمعت - بصورة انتهازية وحول فصائل تشكّلت على أسس المحسوبية "الشاقولية" (أي خلافًا للانتماءات الطبقية الأفقية) - كي تتسابق على السلطة والامتياز اللذين قرّهما ما أتاحه البريطانيون من فرص الحكم الذاتي المحدودة. وزعم مؤرخو كامبردج أنّ هذه هي الدينامية الفعلية لما يمكن أن يحسبه المراقبون الخارجيون أو المؤرخون الساذجون صراعًا مثاليًا من أجل الحرية، وأنّ القومية والكولونيالية تأتيا نكتاهما في هذا التاريخ بمنزلة شخصيتين ثانويتين واهنتين. يقول سيل (Seal, 1973, 2) إنّ تاريخ القومية الهندية هو تاريخ "التنافس بين الهندي والهندي، وعلاقته بالإمبريالية لا تعدو كونها علاقة خيالي مآتة يتمسك واحدهما بالآخر".

يقف في الطرف الآخر من هذا النقاش المؤرخ الهندي بيان شاندر الذي كان في سبعينيات القرن العشرين أستاذًا في جامعة جواهر لال نهرو المرموقة في نيودلهي. نظر شاندر وزملاؤه إلى التاريخ الهندي في الفترة الكولونيالية على أنه معركة ملحمية بين القوى القومية والقوى الكولونيالية. واعتبر شاندر (Chandra 1979)، استنادًا إلى أعمال ماركس وأعمال منظري مدرسة التبعية والتخلف الأميركية اللاتينية، أنّ الكولونيالية قوة رجعية شوّهت تطور المجتمع الهندي كله والدولة الهندية، وأنّ من الممكن الإنحاء باللائمة على اقتصاد

9 الراج، أو الراج البريطاني، هو، باختصار، الحكم البريطاني في شبه الجزيرة الهندية منذ بداية القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين. (المترجم)

الكولونيالية السياسي لما في الهند بعد الاستقلال من علل اجتماعية وسياسية واقتصادية، بما فيها علل الفقر الشامل والصراع الديني والطائفي. ونظر شاندرأ إلى القومية نظرةً مختلفةً مناقضةً. ورأى فيها قوة تجديد، ونقيض الكولونيالية، والشيء الذي وحّد "الشعب الهندي" وأوجده بتعبئته للنضال ضد البريطانيين. ورأى في القادة القوميين مثل غاندي Gandhi ونهرو Nehru مؤسسين لحركة مناهضة للإمبراطورية ترمي إلى وحدة الأمة. وزعم شاندرأ أنّ صراع المصلحة والأيدولوجيا بين المستعمرين و"الشعب الهندي" هو الصراع الأهم في الهند البريطانية، وأنّ جميع الصراعات الأخرى الطبقية أو الطائفية ثانوية بالنسبة إلى هذا التناقض الرئيس ويجب أن تُعامل على هذا النحو عند كتابة التاريخ القومية.

لكنّ سلسلة متزايدة من المصاعب راحت تواجه هاتين الروائيتين كلتيهما مع تقدّم البحث في سبعينيات القرن العشرين. كان واضحاً أنّ رواية كامبردج عن "سياسة قومية من دون أفكار أو مُثُل" لن تروق لباحثين في شبه القارة اختبروا هم أنفسهم الرغبة في التحرر من الحكم الكولونيالي⁽¹⁰⁾. ومن ناحية أخرى، فإنّ قصة المؤرّخ القومي عن "حرب أخلاقية" بين الكولونيالية والقومية كانت تكشف على نحو متزايد مع تسليط الباحثين الشباب في الهند وغيرها الضوء على مواد جديدة. وعلى سبيل المثال، فإنّ معلومات جديدة عن تعبئة زعماء النخبة القوميين للفقراء (الفلاحين، القبائل، العمال) في سياق الحركات الجماهيرية الغاندية في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته أشارت إلى جانب رجعي قوي لدى الحزب القومي الرئيس، المؤتمر الوطني الهندي. كما قام جيانيندرأ باندي Gyanendra Pandey في أكسفورد، وديفيد هارديمان David Hardiman وديفيد أرنولد David Arnold في سسكس (كلاهما أصبح لاحقاً عضواً في جماعة **دراسات التابع**)، وماجد صديقي Majid Siddiq وكابيل كومار في Kapil Kumar دلهي، وهيستيسرانجان سانيل Histesranjan Sanyal في كلكتا، وبرايان ستودارت Brian Stoddart وستيفن هينينغهام Stephen Henningham وماكس هاركورت Max Harcourt في أستراليا، وآخرون في غير مكان، بتوثيق قمع القادة القوميين بيد من حديد نزوع الفلاحين أو العمال إلى تجاوز الحدود المفروضة ذاتياً في الأجندة السياسية القومية والاحتجاج على القمع الذي ينزله بهم لا البريطانيون فحسب، بل الجماعات الحاكمة من أهل البلد أيضاً⁽¹¹⁾. ومن وجهة نظر جيل شاب من المؤرّخين دعاهم جحا "أطفال منتصف الليل"، على غرار عنوان رواية سلمان رشدي Salman Rushdie، لا تشكّل الأطروحة الكامبرديّة التي تبدي تشككاً في القومية الهندية ولا الأطروحة القومية-الماركسية التي تموّه صراع الأفكار والمصالح بين النخبة القومية وأتباعها الخاضعين اجتماعياً - أو المستوعبين في أجندة تاريخية قومية - ذلك الردّ الوافي على مشكلات كتابة التاريخ ما بعد الكولونيالي في الهند⁽¹²⁾. وقد تضافر استمرار الصراع الديني والطائفي في هند ما بعد الاستقلال، وحرب عام 1962 الهندية - الصينية التي جعلت القومية الرسمية تبدو فارغة وأفضت في النهاية إلى انبهار الشباب الهندي المدني المتعلّم بالماوية، وانتشار حركة سياسية ماوية عنيفة (عُرفت باسم الحركة الناكسالية Naxalite movement) اجتذبت إلى الريف كثيراً من الشباب المدني في أواخر ستينيات القرن العشرين وأوائل سبعينياته، وعديد من العوامل الأخرى كي يفضي ذلك كلّهُ إلى غربة لدى المؤرّخين الشباب حيال شعارات التأريخ القومي. لكن كلّ هذا السخط التاريخي كان لا يزال يتخبّط ضمن الأطر النظرية الليبرالية والوضعية القديمة الموروثة من التقاليد الإنكليزية في كتابة التاريخ حتى وهو يبحث عن سبيل لتصفية استعمار حقل التاريخ الهندي.

10 كتب أحد المؤرّخين الهنود رداً على أعمال باحثي كامبردج، "في السابق، منذ زمن ليس بالبعيد كثيراً، كانت القومية بالنسبة إلى ما لا يُحصى من الهنود نازاً في العروق". انظر:

Tapan Raychaudhuri's review essay "Indian Nationalism As Animal Politics" (1979).

11 Pandey 1978; Siddiqi 1978; Kumar 1984; Arnold 1977; Sanyal 1994; and Hardiman 1981;

وانظر أيضاً المقالات في: Low 1977.

12 انظر المقدمة في: Guha 1998.

دراسات التابع بوصفها تحوُّلاً في الإطار النظري (الباراداييم): 1982 - 1987

ذلك هو الوضع الذي تدخلت فيه **دراسات التابع**. لقد بدأت، فكرياً، في المجال ذاته الذي كان عليها أن تغالبه: التأريخ الذي يضرب بجذوره في نظام التعليم الكولونيالي. بدأت بوصفها نقداً لمدرستين في التاريخ متنازعتين: مدرسة كامبردج ومدرسة المؤرخين القوميين. ذلك أن هاتين المقاربتين نخبويتان كلتاهما، كما أعلن جحا في بيانٍ افتتح سلسلة **دراسات التابع**. وكانتا قد كتبتا تاريخ القومية بوصفه قصة مأثرة اجترحتها طبقات النخبة، سواء أكانت هندية أم بريطانية. وعلى الرغم من مزاياهما كليهما، لم تقويا على تفسير "المساهمات التي قدّمها الشعب من لقاء نفسه، أي **باستقلال عن النخبة** في قيام هذه القومية وتطورها" (Guha 1982, 3)، التشديد لجحا). وسوف يتضح من بيان جحا هذا أن **دراسات التابع** كانت جزءاً من محاولة لمواءمة التفكير التاريخي مع حركات أوسع من أجل الديمقراطية في الهند. وتطلعت إلى مقاربة في كتابة التاريخ مناهضة للنخبوية، وكانت في هذا الجانب تتقاسم الكثير مع مقاربات "التاريخ من أسفل" التي كان روّادها في التأريخ الإنكليزي كريستوفر هيل Christopher Hill وإ. ب. طومسن وإ. ج. هوبسباوم، وآخرين. ذلك أن كلاً من **دراسات التابع** ومدرسة "التاريخ من أسفل" ماركسية الإلهام؛ وكلتاهما تدين فكرياً إلى الشيوعي الإيطالي أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci في محاولة النأي عن قراءات ماركس الستالينية الحتمية. وتعود كلمة "التابع" ذاتها - وبطبيعة الحال، مفهوم "الهيمنة" الشهير والحاسم تماماً في المشروع النظري لدراسات التابع - إلى كتابات غرامشي⁽¹³⁾. وكما هو الحال في التواريخ التي كتبها طومسن وهوبسباوم وهل وغيرهم، عُيِّت **دراسات التابع** أيضاً بـ "إنقاذ" ماضي الجماعات التابعة اجتماعياً في الهند "من تفضّل الأجيال اللاحقة". وكان هدفها المعلن إنتاج تحليلات تاريخية يُنظر فيها إلى الجماعات التابعة بوصفها ذوات التاريخ. وكما قال جحا مرّةً (Guha 1984, vii) في سياق تقديم أحد مجلدات **دراسات التابع**: "إننا نعارض بالفعل قدراً كبيراً من الممارسة الأكاديمية السائدة في التأريخ... لفشلها في الاعتراف بالتابع كصانع لمصيره. هذا الانتقاد يكمن في صميم مشروعنا".

لكن تنظير جحا للمشروع أشار في الوقت نفسه إلى اختلافات معينة رئيسة من شأنها أن تميّز على نحو متزايد مشروع **دراسات التابع** من مشروع التأريخ الماركسي الإنكليزي. ويمكن القول، بنوع من الإدراك اللاحق، إن هناك عموماً ثلاثة مجالات تختلف فيها **دراسات التابع** عن مقاربة "التاريخ من أسفل" لدى هوبسباوم أو طومسن (على الرغم من الاختلافات بين هذين المؤرخين البارزين لإنكلترا وأوروبا). ذلك أن تأريخ التابع يستلزم بالضرورة (أ) فصلاً نسبياً لتاريخ السلطة عن أيّ تواريخ عامة لرأس المال، (ب) نقداً لشكل الأمة، و(ج) استقصاءً للعلاقة بين السلطة والمعرفة (وتالياً للأرشيف ذاته وللتاريخ كشكل من أشكال المعرفة). وما أراه هو أن في هذه الاختلافات تكمن بدايات طريقة جديدة في تنظير الأجندة الفكرية للتواريخ ما بعد الكولونيالية.

ابتدأ القطع النظري النقدي بالطريقة التي سعى جحا من خلالها إلى إعادة تعريف مقولة "السياسي" بالإشارة إلى الهند الكولونيالية؛ إذ رأى أن كلاً من مؤرخي كامبردج والمؤرخين القوميين خلطوا بين الميدان السياسي وبين الجانب الرسمي من العمليات الحكومية والمؤسسية. يقول جحا:

تفترض جميع الكتابات من هذا النوع [أي كتابات التأريخ النخبوي] أن نطاقات السياسة الهندية هي نطاقات المؤسسات التي أدخلها البريطانيون لحكم البلاد.... ولا يسع [المؤرخين النخبويين] سوى أن يساوا السياسة بجملة الأنشطة والأفكار لدى أولئك المنخرطين مباشرة في تشغيل هذه المؤسسات، أي الحكام الكولونيين ومريديهم (élèves)؛ الجماعات المسيطرة في المجتمع المحلي. (Guha 1984, 3-4)

13 Antonio Gramsci, "Notes on Italian History" (1973).

زعم جحا (5 - 4, 1984, Guha)، باستخدام "الشعب" و"الطبقات التابعة" كمترادفين وتعريفهما بأنهما "الفارق الديموغرافي بين إجمالي السكان الهنود" والنخبة المحلية والأجنبية المسيطرة، أن ثمة في الهند الكولونيالية نطاقاً لـ "سياسات الشعب" يتمتع بـ "الاستقلال الذاتي" مُنظماً على نحو مختلف عن نطاق سياسات النخبة. تشتمل سياسات النخبة على "تعبئة شاقولية"، و"اتكال زائد على ضروب التكيف الهندي مع المؤسسات البرلمانية البريطانية"، و"ميل إلى أن تكون نسبياً أكثر شرعيةً ودستوريةً في توجيهها". أما في نطاق سياسات التابع، فتتوقف التعبئة من أجل التدخل السياسي على ارتباطات أفقية مثل "التنظيم التقليدي للقرابة والانتماء المحلي أو على الوعي الطبقي تبعاً لمستوى وعي البشر المعنيين". وتميل سياسات التابع إلى أن تكون أكثر عنفاً من سياسات النخبة. وتحتل "فكرة مقاومة سيطرة النخبة" مكانة مركزية في ضروب تعبئة التابع. و"تجربة الاستغلال والعمل وهبت هذه السياسات كثيراً من التعبير والقواعد والقيم التي تضعها في صنف منفصل عن صنف سياسات النخبة"، كما يقول جحا. وهو يرى أن انتفاضات الفلاحين في الهند الكولونيالية عكست قواعد التعبئة المنفصلة والمستقلة هذه "في شكلها الأكثر شمولاً". وحتى في حالات المقاومة والاحتجاج من طرف العمال المدينيين، نجد أن "شكل التعبئة" هو ذلك الشكل "المستمد من تمرد الفلاحين مباشرة".

ترتبت على فصل جحا نطاقي سياسات النخبة وسياسات التابع آثار جذرية في النظرية الاجتماعية والتأريخ. كان الميل المعهود في التأريخ الماركسي العالمي حتى سبعينيات القرن العشرين هو النظر في ثورات الفلاحين المنظمة على محاور القرابة والدين والطائفة... إلخ، على أنها حركات تبدي وعياً "متخلفاً"، من ذلك النوع الذي وصفه هوبسباوم (2, 1978, Hobsbawm) في عمله على قطاع الطرق و"التمردات البدائية" بأنه "ما قبل سياسي" (ورد في 5-6, 1983, Guha). وكان يُنظر إلى هذا الوعي أنه لا يتسق تماماً مع منطق الحداثة أو الرأسمالية المؤسسي. وكما يقول هوبسباوم (2, 1978, Hobsbawm) بالإشارة إلى مادته الخاصة: "إنهم أناس ما قبل سياسيين لم يجدوا بعد، أو أنهم بدأوا للتو في إيجاد، لغة خاصة تعبر عن تطلعاتهم حيال هذا العالم". وبرفض جحا وصف وعي الفلاحين بأنه "ما قبل سياسي" ذلك الرفض الصريح، وتحاشيه نماذج "الوعي" التطورية، بات مهيباً ليشير إلى أن من طبيعة العمل الجماعي ضد الاستغلال في الهند الكولونيالية أن توسع الحدود المتخيّلة لمقولة "السياسي" ذلك التوسيع الفاعل أبعد بكثير من المناطق التي خصها بها الفكر السياسي الأوروبي، وليشير إلى أن تجاهل المشكلات التي تسببها مشاركة الفلاحين في المجال السياسي الحديث ماركسيةً أوروبيةً التمرکز لا بد أن يؤدي إلى تواريخ نخبوية فحسب. ذلك أن المرء لن يعرف عندئذ كيف يحلل وعي الفلاحين - خطابات القرابة والطائفة والدين والعرق التي يعبرون من خلالها عن أنفسهم في أثناء الاحتجاج - إلا بوصفه وعياً "متخلفاً" يحاول أن ينبري لعالم متغيّر لا يسعه قط أن يحيط بمنطقه تمام الإحاطة.

ألح جحا على أن الفلاحين ليسوا ضرباً من المفارقة التاريخية في عالم كولونيالي حديث، بل معاصرون فعليون للكولونيالية وجزء جوهرى من الحداثة التي أدّى إليها الحكم الكولونيالي في الهند. ووعي الفلاحين ليس وعياً "متخلفاً"، ولا عقلية من مخلفات الماضي تشدها المؤسسات السياسية والاقتصادية الحديثة فتقاومها. وأشار جحا إلى أن الفلاحين (التمردين) في الهند الكولونيالية قرأوا عليهم المعاصر قراءة صائبة في الواقع. وبين، في سياق تفحصه أكثر من مئة حالة معروفة من حالات تمرد الفلاحين في الهند البريطانية بين عامي 1783 و1900 (Guha 1983، الفصلان 1 و2)، أن هذه التمردات تشتمل دوماً على استخدام الفلاحين شيفرات خاصة باللباس والكلام والسلوك تنزع إلى قلب الشيفرات التي يسيطر عليهم من خلالها أسيادهم الاجتماعيون في الحياة اليومية. ويكاد قلب رموز السلطة أن يكون الفعل الأول الحتمي في تمرد الفلاحين، لكنّ التواريخ النخبوية التي تناولت انتفاضات الفلاحين أغفلت أهمية هذه البادرة باعتبارها إيّاهما "ما قبل سياسية". على سبيل المثال، نبذ أنيل سيل (1, 1968, Seal) جميع ثورات الفلاحين في الهند الكولونيالية في القرن التاسع عشر لأنّها خالية من أيّ "محتوى سياسي نوعي"، كونها "انتفاضات من النوع التقليدي، سبيلها الوحيد للاحتجاج على شقائهما هو العصي والحجارة". أما الماركسيون، من جهة أخرى، فيفسّرون هذه البادرات على أنّها تعبير عن وعي زائف و/أو قيام بوظيفة "صمام

الأمان" في النظام الاجتماعي الكلي⁽¹⁴⁾. وما يفوت كلتا هاتين الإستراتيجيتين التفسيريتين، بحسب جحا، هو حقيقة أنه في بداية كل انتفاضة فلاحية كان لا بد من نضال يخوضه المتمرّدون لتدمير رموز الهيبة الاجتماعية وسلطة الطبقات الحاكمة كلّها. يقول جحا: "هذا القتال من أجل الهيبة كان في صميم التمرد. وكان قلب الأمور هو وجهته الرئيسية. وهو نضال سياسي يتملّك فيه المتمرّد و/أو يدمر رمز قوة عدوه أملاً بذلك إزالة علائم تبعيته" (Guha 1983, 75، التشديد لي).

شدّدت على كلمة "سياسي" في اقتباسي من جحا أعلاه للتأكيد على التوتر الخلاق بين التّسبب الماركسي لدراسات التابع وما طرّختُه منذ البداية من أسئلة أشدّ تحدياً حول طبيعة السلطة في الحداثات الكولونيالية غير الغربية. ما أراد جحا تبيانه هو أن ترتيبات السلطة التي وجد فيها الفلاحون والطبقات التابعة الأخرى أنفسهم في الهند الكولونيالية اشتملت على منطقتين في الترتاب والاضطهاد مختلفين أشدّ الاختلاف. أولهما هو منطق الإطار القانوني والمؤسسي شبه الليبرالي الذي جلبه البريطانيون إلى البلاد. وثانيهما هو مجموعة أخرى من العلاقات مترابطة مع الإطار السابق ويقوم فيها الترتاب على سيطرة وإخضاع مباشرين وصرحين لمن تعوزهم القوة سواء بالوسائل الأيديولوجية-الرمزية أو بالقوة المادية. وسيمياء السيطرة والإخضاع هذه هي ما سعت الطبقات التابعة إلى تدميره في كلّ مرة نهضت فيها إلى التمرد. ولا يمكن فصل هذه السيمياء في الحالة الهندية عمّا نشير إليه باللغة الإنكليزية من غير دقّة إمّا بـ "الديني" أو "الغيبّي".

يمكن أن نرى التوتر بين رواية مألوفة عن رأس المال وفهم أكثر جذرية له في كتاب جحا الأوجه الأولية لتمرّد الفلاحين في الهند الكولونيالية ذاته. ثمة أوقات يميل فيها جحا إلى قراءة "السيطرة والإخضاع" من حيث التعارض بين نمط الإنتاج الإقطاعي ونمط الإنتاج الرأسمالي. وهناك نزوع كبير في البحث الماركسي والليبرالي إلى قراءة العلاقات غير الديمقراطية - أو أنظمة السلطة المشخّصة وممارسات تأليه الحكّام - على أنها بقايا من عهد ما قبل رأسمالي، وعلى أنها ليست حديثة تماماً. وهي تُرى بوصفها مؤشراً على مشكلات الانتقال إلى الرأسمالية، بافتراض أنّ الرأسمالية المكتملة لا بدّ أن تكون متعارضة منطقياً مع العلاقات "الإقطاعية". وكتاب جحا الأوجه الأولية يتكلّم في بعض الأحيان من ضمن هذا التقليد في التحليل. وما يخبرنا إيّاه في بعض الأماكن (Guha 1983, 6) هو أنّ السيطرة المباشرة سمة من سمات الإقطاعية المتبقية:

إذا أخذنا شبه القارة الهندية كلّها، فإنّ التطور الرأسمالي في الزراعة بقي أولياً فحسب ... حتى 1900. وظلّ الربيع يشكّل الجزء الجوهرية من الدخّل المتأثري عن ملكية الأرض ... والعنصر الثابت في هذه العلاقة [بين الفلاحين وملاك الأرض] بكلّ تنوعها هو انتزاع الفائض من الفلاحين بطرائق محددة؛ أي ليس من خلال اللعب الحرّ لقوى اقتصاد السوق بقدر ما هو من خلال قوة فوق اقتصادية هي موقع ملاك الأرض في المجتمع المحلي وفي نظام الحكم الكولونيالي. بعبارة أخرى، كانت هذه العلاقة علاقة سيطرة وإخضاع: علاقة سياسية من النمط الإقطاعي، أو كما وصفت على نحو مناسب، علاقة شبه إقطاعية تستمد وجودها المادي من شروط الإنتاج ما قبل الرأسمالية وتستمد شرعيتها من ثقافة تقليدية لا تزال سائدة في البنية الفوقية.

لكن هذه الرواية الماركسيّة المحددة لا تمثّل كما يجب قوة نقد جحا لمقولة "ما قبل السياسي" وما لهذا النقد من أهمية. ذلك أنّه إذا ما قبلنا ماركسيّة هذا الاقتباس، يمكن أن نعود إلى جحا لنرى أنّ مجال السياسي نادراً ما تجرّد عن المجالات الأخرى (الدين، القرابة، الثقافة) في علاقات السيطرة والإخضاع الإقطاعية، وأنّه يصعب بهذا المعنى أن نصّف علاقات السلطة الإقطاعية بأنّها سياسية على الوجه الصحيح. ويمكن عندئذٍ قراءة العلاقات "الإقطاعية" المتبقية في المشهد الهندي - كما يفعل جحا في بداية هذا الاقتباس - بوصفها

14 يتفحص جحا مثل هذه المواقف الماركسيّة وينتقدّها في مقالته الموسومة:

"The Prose of Counter-Insurgency" in Guha and Spivak 1988.

علامة عدم اكتمال الانتقال إلى الرأسمالية. وبهذا المنطق، يمكن أن ننظر إلى ما يسمى العلاقات شبه الإقطاعية وعقلية الفلاحين بأنها بقايا مرحلة سابقة، لا تزال نشطة، من دون شك، لكنها قيد انقراض تاريخي-عالمي. وكل ما تحتاجه الهند هو خلق مزيد من المؤسسات الرأسمالية، وعندها سوف تبدأ عملية تحويل الفلاح إلى مواطن؛ أي إلى الصورة السياسية الصحيحة لما يعنيه أن يكون المرء شخصًا. وهذا ما كان عليه منطلق هوبسباوم في الحقيقة. وهو السبب في أن شخصياته "ما قبل السياسية" - حتى عندما "تُقحّم" في الرأسمالية وحتى حين يعترف هوبسباوم (Hobsbawm 1978, 3) بأن "اكتساب هؤلاء المتمردين البدائيين وعيًا سياسيًا" هو ما يجعل "قرننا الأكثر ثورية في التاريخ" - تبقى "غريبة" على الدوام عن منطق الرأسمالية: "فهي تأتيهم من الخارج، خلسةً من خلال اشتغال القوى الاقتصادية التي لا يفهمونها ولا يسيطرون عليها أي سيطرة".

لكنّ جحا، في رفضه مقولة "ما قبل السياسي"، يلجّ على الفروق النوعية بين تاريخي السلطة في الهند الكولونيالية وأوروبا. وهذه اللفتة جذرية في ما تسبغه من تعددية جوهرية على تاريخ السلطة في الحداثة العالمية وفي فصلها إياه عن أي تاريخ كوني لرأس المال. يقول جحا (6, 1983, Guha): "إنّ مواد هوبسباوم مستمدة من التجربة الأوروبية بصورة تكاد تكون كاملة وتعميماته ربما تكون متوافقة معها ... ومهما تكن صحّة فكرة التمرد الفلاحي ما قبل السياسي بالنسبة إلى بلدان أخرى إلا أنها قليلة الغناء في فهم تجربة الهند الكولونيالية". وحين نرى التشكيك الكولونيالية في الهند بوصفها حالة من حالات الحداثة ينشطر فيها المجال السياسي، كما يقول جحا في تقديم **دراسات التابع**، إلى منطقتين متميزتين يبقين متضافرين معًا طوال الوقت - منطق أطر الحكم الرسمية القانونية والعلمانية ومنطق علاقات السيطرة والإخضاع المباشرين اللذين يستمدا شرعيتهم من مجموعة مختلفة من المؤسسات والممارسات بما في ذلك **الدهارما** (التي غالبًا ما تُترجم بـ "الدين") - فسوف نجد أنّ كتابات جحا تساهم في الكشف عن مشكلة لافته للغة في التاريخ العالمي للحداثة.

في النهاية، هذه هي مشكلة التفكير في تاريخ السلطة في عصر يطوّر فيه رأس المال ومؤسسات الحداثة الحاكمة مدّى عالميًا متزايدًا. تفترض مناقشة ماركس للضبط الرأسمالي أنّ حكم رأس المال يقتضي الانتقال إلى علاقات سلطة رأسمالية. وبين عمل ميشيل فوكو Michel Foucault أنه إذا أردنا أن نفهم المؤسسات الرئيسة للحداثة التي نشأت في الغرب، فلا بدّ من إكمال نموذج السيادة الحقوقي الذي يحتفي به الفكر السياسي الأوروبي الحديث بمفاهيم الضبط والسلطة البيولوجية والحاكمية. ويزعم جحا أنّ هذا الإكمال يجب أن يتضمن في حداثته الهند الكولونيالية زوجًا آخر من المصطلحات: السيطرة والإخضاع. وهذا ليس لأنّ الهند بلد شبه حديث أو شبه رأسمالي أو شبه إقطاعي أو أيّ شيء من هذا القبيل، وليس لأنّ رأس المال في الهند يحكم من خلال "الإخضاع الشكلي" (15) وحده. يتخطى جحا الجدل الذي يختزل مسائل الديمقراطية والسلطة في شبه القارة إلى أطروحات عن انتقال غير مكتمل إلى الرأسمالية. وهو لا ينكر صلات الهند الكولونيالية بقوى الرأسمالية العالمية. ووجهة نظره أنّ التاريخ العالمي للرأسمالية لا يعيد بالضرورة إنتاج تاريخ السلطة ذاته في كلّ مكان. وفي حساب متغيرات الحداثة، ليست السلطة متغيرًا تابعًا، بينما يقوم رأس المال بدور المتغيّر المستقل. ويمكن التعامل مع رأس المال والسلطة كمقولتين مستقلتين تحليليًا. ولذلك لطالما كان الفكر السياسي الماركسي الأوروبي التقليدي الذي ربط المقولتين فكرًا مهمًا لكنه غير كافٍ لتنظير السلطة في تواريخها الكولونيالية الحديثة. ذلك أنّ تاريخ الحداثة الكولونيالية في الهند خلق لما هو سياسيّ مجالًا متغايّر الألسنة من حيث مصطلحاته، تعدديًا على نحو لا يمكن اختزاله من حيث

15 الإخضاع الشكلي للعمل لرأس المال formal subsumption من مصطلحات ماركس، ويشير به إلى استيلاء الرأسمالي على أنماط العمل التي تطورت قبل انبثاق العلاقات الرأسمالية، وما يرتبط بذلك من قسر لاعتصار العمل الفائض بإطالة وقت العمل. وهذا الشكل هو الشكل العام لكل عملية إنتاج رأسمالية، وهو يقف في تمايز صارخ مع الإخضاع الفعلي للعمل لرأس المال الذي يتطور بنمط رأسمالي خاص للإنتاج (الصناعة الكبرى) يتميّز بطرائق أخرى في اعتصار القيمة الفائضة. انظر، كارل ماركس، نتائج عملية الإنتاج المباشرة (الجزء المجهول من رأس المال)، ترجمة فالح عبد الجبار (مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، د.ت.)، ص 125 - 150. (الترجم)

بنيتها، تتشابه في داخله خيوط أنماط مختلفة من العلاقات لا تشكّل كلاً منطقيًا. ومن هذه الخيوط خيط حاسم لاشتغال السلطة في المؤسسات الهندية، هو ما تمارسه النخبة على التابعين من سيطرة وإخضاع مباشرين. وكما قال جحا في مساهمته الأولى في **دراسات التابع** (Guha 1982, 4) فإنّ هذا الخيط من السيطرة والإخضاع في علاقات السلطة في الهند "لم يكن تقليديًا إلا بقدر ما يمكن تتبّع جذوره إلى الزمن ما قبل الكولونيالي، لكنه ليس عتيقًا بأيّ حال من الأحوال بمعنى أنّ الزمن قد عفا عليه".

هكذا كانت ما تمارسه النخبة على التابعين من سيطرة وإخضاع اجتماعيين سمة يومية من سمات الرأسمالية الهندية ذاتها. فهي رأسمالية من النمط الكولونيالي. ورأى جحا، بقراءة نقدية لبعض نصوص ماركس الأساسية، أنّ الكولونيالية الحديثة هي في جوهرها الشرط التاريخي الذي يسيطر فيه رأس مال مطرد التوسع والعالمية على المجتمعات غير الغربية من دون أن يُحدِث أيّ تحول ديمقراطي شامل في العلاقات الاجتماعية للسلطة أو يحتاج إليه. والدولة الكولونيالية - التعبير النهائي عن المجال السياسي في الهند الكولونيالية - هي نتيجة لإمكان مثل هذه السيطرة وشرطًا لها في آنٍ معًا. وكما يقول جحا (6 - 5, 1982 Guha) فإنّ "الكولونيالية لا يمكن أن تستمر كعلاقة سلطة في شبه القارة إلا بشرط أن تخفق البرجوازية المستعمرة في الارتقاء إلى مشروعها الكوني. وطبيعة الدولة التي خلقتها بالسيف هي التي جعلت هذا ضروريًا تاريخيًا". وكانت النتيجة مجتمعًا تتغير من دون شكّ تحت تأثير الرأسمالية الكولونيالية لكن "مناطق شاسعة في حياة الشعب ووعيه" نجت من أيّ نوع من أنواع "الهيمنة [البرجوازية]".

لا يمكن، إذا، إنتاج التاريخ الثقافي للسلطة في الحدّثة الهندية بتطبيق بسيط لتحليلات القومية التي قدّمها الماركسية الغربية. وبخلاف التقليد الفكري الذي يربط المؤرّخ الماركسي القومي ببيان شاندرنا بأراء القوميين اليساريين مثل جواهر لال نهرو، تنطوي رؤية جحا على أنّه من غير الممكن منافسة قصة الكولونيالية الرجعية برواية عن حركة قومية قوية تسعى إلى ترسيخ رؤية برجوازية في المجتمع برمتها⁽¹⁶⁾؛ وذلك لعدم وجود طبقة هنا تمكن مقارنتها بالبرجوازية الأوروبية في الرواية الماركسية، طبقة قادرة على اجترار أيديولوجيا مهيمنة تجعل مصالحها الخاصة تظهر على أنّها مصالح الجميع. ويظهر تاريخ الطريقة التي سعى بها قوميو النخبة في الهند إلى تعبئة الطبقات التابعة مجالًا سياسيًا تعايشت فيه وتفاعلت اللغات العلمانية للأطر القانونية والدستورية مع استراتيجيات السيطرة والإخضاع غير المتناسبة معها. ورأى جحا في مقالته "الكولونيالية في جنوب آسيا: سيطرة من دون هيمنة وتأريخها" (Guha 1997, 97-98) أنّ "الثقافة الهندية في الحقبة الكولونيالية" تأتي أنّ تُفهم "بوصفها تكرارًا للثقافة البرجوازية الليبرالية في بريطانيا القرن التاسع عشر أو بوصفها مجرد بقايا من ثقافة سابقة ما قبل رأسمالية". إنّها رأسمالية ولكن من دون التراتيبات الرأسمالية، وهي سيطرة رأسمالية من دون ثقافة رأسمالية مهيمنة، أو "سيطرة من دون هيمنة"، على حدّ تعبير جحا الشهير.

دراسات التابع وإعادة توجيه التاريخ

كان لصيغتيّ جحا - أنّ كلاً من القومية والكولونيالية انخرطتا في إقامة حكمٍ لرأس المال في الهند تمارس فيه الأيديولوجيات البرجوازية "سيطرة من دون هيمنة"، وأنّ أشكال السلطة الناجمة عن ذلك لا يمكن وصفها بأنّها "ما قبل سياسية" - آثار عديدة في ما يتعلق بالتاريخ، ظهر بعضها في كتابات جحا الخاصة في حين ظهر بعضها الآخر في كتابات زملائه. ومن المهم أن نوضح هذه الآثار، لأنّها ما جعل **دراسات التابع** تجربةً في التاريخ ما بعد الكولونيالي.

16 افتترضت كتابات نهرو في ثلاثينيات القرن العشرين وكتابات بيان شاندرنا في سبعينياته من دون أيّ مساءلة أنّ الحركة القومية هي "حركة برجوازية أساسًا" (Nehru [1936] 1962, 66) وأنّ وظيفتها إقامة "هيمنة أيديولوجية وسياسية وتنظيمية برجوازية... على الجماهير الواسعة من الفلاحين والعمال والطبقات الوسطى الدنيا" Chandra 1979, 135.

أولاً وقبل كل شيء، كان للنقد الذي وجهه جحا لمقولة "ما قبل السياسي" أن يتحدّى التاريخانية برفض كلّ النظريات التي تقسم التاريخ إلى مراحل محددة متعاقبة. فإذا ما كان مصطلح "ما قبل السياسي"، كما ناقشته، يستمد صحته من تصنيف أنواع معينة من علاقات السلطة على أنها "ما قبل حديثة"، و"إقطاعية"، وهلم جرا، فإنّ مناقشة جحا للسلطة في الهند الكولونيالية تقاوم مثل هذا التمييز الواضح بين الحديث وما قبل الحديث. وتلك العلاقات التي بدت "إقطاعية" في الهند عندما نُظِرَ إليها من خلال النظرة التي تقسم التاريخ إلى مراحل محددة متعاقبة هي علاقات معاصرة لكل ما بدا "حديثاً" لتلك النظرة ذاتها. وفي رأي جحا، أنّه ما كان يمكن النظر إلى العلاقات الأولى من خلال الاستعارات الجيولوجية أو التطورية، مثل "البقاء" و"البقايا"، من دون أن تغدو هذه التاريخانية نخوبة في تفسيرها الماضي.

هكذا كانت **دراسات التابع** في تعارض مبدئي مع التواريخ القومية التي صوّرت الزعماء القوميين على أنّهم يهدون الهند وشعبها سبيل الخروج من مرحلة من المراحل "ما قبل الرأسمالية" إلى طور "الحدائنة البرجوازية" التاريخي العالمي، المجهّز بأدوات الديمقراطية وحقوق المواطنة واقتصاد السوق وسيادة القانون. لا شك أنّ النخبة السياسية الهندية استدخلت لغة الحدائنة السياسية هذه واستخدمتها، لكنّ هذا الميل الديمقراطي وُجِدَ إلى جانب علاقات غير ديمقراطية من السيطرة والإخضاع واختلط معها. وهذا التعايش لاثنين من مجالات السياسة هو، كما يقول جحا (6 - 5، 1982، Guha) "مؤشّر على حقيقة تاريخية مهمة، هي **إخفاق البرجوازية في التعبير عن الأمة**" (التشديد لجحا). والحال، أنّه لم يكن ثمة "أمة" موحّدة للتعبير عنها. وكان السؤال الأهم هو كيف ظهرت قومية رسمية زعمت أنّها تمثّل مثل هذه الأمة الموحدة ومن خلال أيّ ممارسات. وهذا الموقف النقدي من القومية الرسمية أو الدولية والتاريخ المرتبط بها هو من الأشياء التي وسمت **دراسات التابع** منذ البداية. وبذلك كان التاريخ ما بعد الكولونيالي شكلاً من التأريخ ما بعد القومي⁽¹⁷⁾.

كان لسعي جحا إلى تاريخ يكون فيه التابع "صانع مصيره" أن يسلّط الضوء على مسألة العلاقة بين النصوص والسلطة. وعادةً ما تكون الأرشيفات التاريخية مجموعات من الوثائق والنصوص من شتى الأنواع. ولطالما أكد مؤرّخو الفلاحين وغيرهم من الجماعات الاجتماعية التابعة على حقيقة أنّ الفلاحين لم يتركوا وثائق خاصة بهم. وغالباً ما لجأ المؤرّخون المعنيون باستعادة "تجربة" فلاحية من تجارب التاريخ إلى موارد الفروع المعرفية والتخصصات الأخرى طلباً للعون: الأنتروبولوجيا والديموغرافيا وعلم الاجتماع وعلم الآثار والجغرافيا البشرية... إلخ، ويقدم يوجين ويبر Eugen Weber في دراسته المعروفة عن فرنسا الريفية في القرن التاسع عشر، **من فلاحين إلى فرنسيين** (Weber, 1976, vxi)، صيغة موجزة لهذه المقاربة: "ليس الأميون عيّن في الحقيقة؛ بل يسعهم أن يعبروا عن أنفسهم بطرائق متعددة ويقومون بذلك بالفعل. وكان علماء الاجتماع والإثنولوجيون والجغرافيون ومؤرّخو المؤرّخون الديموغرافيون قد أظهروا لنا وسائل جديدة ومختلفة لتفسير الأدلة". وفي ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، التفت إ. ب. طومسن وكيث توماس وغيرهما إلى الأنتروبولوجيا بحثاً عن سبل للوقوع على "تجارب" الطبقات التابعة⁽¹⁸⁾. لكن مقارنة جحا (1983، Guha) تختلف عن مقاربات هؤلاء المؤرّخين اختلافاً لافتاً. فكتابه **الأوجه الأولية لتمرد الفلاحين في الهند الكولونيالية** يبدأ بتبيّن المشكلة ذاتها التي تبيّنها ويبر وتوماس وطومسن وغيرهم: أنّ الفلاحين لا يتكلمون مباشرة في وثائق الأرشيفات التي عادةً ما تنتجها الطبقات الحاكمة. ومثلهم أيضاً، يستخدم جحا مجموعة متنوعة من الفروع أو التخصصات لتتبع منطق الوعي الفلاحي في لحظة التمرد. لكنه يفكر في مقولة "الوعي" على نحو مختلف. فهو في تأكيده على استقلال وعي الفلاح المتمرد، لا يهدف إلى إنتاج تعميمات تحاول أن تلخص ما فكّر به في رأسه، أو أحسه، أو عاشه في داخله كلّ فلاح بعينه ممن شاركوا في تمردات الهند الكولونيالية. ذلك أنّ الأمر ينتهي بمثل هذه المحاولات،

17 سوف يطور هذا الجانب من المشروع لاحقاً كل من بارتا شاترجي وجيانيندرا باندي وشهيد أمين، كما سيأتي لاحقاً.

18 انظر ما يقوله إ. ب. طومسن (199، 1979، Thompson) عن "التجربة": "مقولة لا غنى عنها للمؤرخ، مهما تكن غير مكتملة، ذلك أنّها تشتمل على استجابة عقلية وعاقلية يبديها فرد أو مجموعة اجتماعية حيال حوادث مترابطة كثيرة". انظر أيضاً (1963، Thomas).

على الرغم من كل النيات الحسنة، إلى تحويل الفلاحين إلى موضوعات غرائبية من موضوعات الأنثروبولوجيا. ونقدُ جحا مصطلح "ما قبل السياسي" يسدّ بصورة مشروعة سبيل التفكير هذا. وهو ينظر إلى الوعي - وإلى ذاتية الفلاح تاليًا - على أنه شيء محايث لممارسات التمرد الفلاحي ذاتها. وكتاب **الأوجه الأوليّة** هو دراسة لممارسات الفلاحين المتمردين في الهند الكولونيالية، وليس لمقولة مُشَيِّئة تُدعى "الوعي". وكان الهدف من الكتاب إبراز المخيطة الجمعية الكامنة في ممارسات التمرد الفلاحي. ولا يدعي جحا قط أنّ "الوعي المتمرّد" الذي يناقشه "واع" بالفعل، أي موجود في رؤوس الفلاحين. ولا يساوي بين الوعي و"نظرة الذات إلى ذاتها". وهو يتفحص ممارسات المتمردين كي يفكّ مغاليق العلاقات المحددة - بين النخب والتابعين وبين التابعين أنفسهم - التي تُؤدّي في هذه الممارسات، ثم يحاول أن يستخرج من هذه العلاقات ما يمكن أن ندعوه البنية الأوليّة لـ "الوعي" الكامن في تلك العلاقات.

يصف جحا إستراتيجيته التأويلية من خلال استعارة القراءة، تمسّيًا مع التقليد النيوي الذي ينسب كتابه إليه باستخدام كلمة "الأوليّة" منذ العنوان. ولما كانت الأرشيفات المتاحة عن تمرد الفلاحين نتاج إجراءات مكافحة التمرد التي اتخذتها الطبقات الحاكمة وجيوشها وقوات شرطتها، فإنّ جحا يؤكد على حاجة المؤرّخ لأن يطور إستراتيجية واعية في قراءته هذه الأرشيفات، ليس حيال تحيزات النخبة فحسب، بل أيضًا حيال الخصائص النصّية في هذه الوثائق، وذلك كي يضع يده على الطرائق المختلفة التي ممّلت من خلالها أساليب التفكير النخبوية صورة التابعين العاصية وممارساتهم. ويرى جحا أنه من دون أداة المسح هذه سوف يميل المؤرّخون إلى إعادة إنتاج منطق التمثيل ذاته الذي استخدمته الطبقات النخبوية في السيطرة على التابعين⁽¹⁹⁾. وتبدو استعارة القراءة التدخّلية هنا في تضاد مع استخدام إ.ب. طومسن (Thompson, 1979, 210, 222) استعارة الإصغاء السليبية في وصف النشاط التأويلي للمؤرّخ، وذلك في مناظرة له مع ألتوسير Althusser⁽²⁰⁾. وهذا التركيز على القراءة يترك التاريخ الذي تمارسه **دراسات التابع** عرضة لتأثيرات نظرية الأدب والسرد⁽²¹⁾.

هكذا يتعد جحا وزملاؤه - في نقدهم التاريخانية والمركزية الأوروبية على هذا النحو واستخدام هذا النقد في استنتاج فكرة الأمة، وفي التأكيد على الخصائص النصّية لوثائق الأرشيف، وفي اعتبار التمثيل وجهًا من أوجه علاقات السلطة بين النخبة والتابعين - عن الافتراضات التي تستهدي بها مقاربة "التاريخ من أسفل" لدى التّاريخ الماركسي الإنكليزي. ومع أعمال جحا، يعطف التاريخ الهندي، إذا جاز القول، تلك الانعطافة الألسنية التي راح يُضرب بها المثل. وكانت **دراسات التابع** قد اتخذت موقعًا لها منذ البداية في منطقة اليسار غير التقليديّة. وما ورثته عن الماركسية كان في حوار أصلاً مع تيارات أخرى حديثة من الفكر الأوروبي، ولا سيما تيارات النيوية. وكان ثمة تعاطف مع بدايات فوكو توضحه الطريقة التي طرحَتْ بها كتاباتُ جحا مسألة المعرفة-السلطة من خلال السؤال: "ما الأرشيف وكيف يُنتج؟"

دراسات التابع منذ عام 1988: دوائر متعددة

تقاعد جحا من فريق التحرير في **دراسات التابع** في عام 1988⁽²²⁾. وفي العام نفسه، نُشرت في نيويورك مختارات من دراسات التابع (*Selected Subaltern Studies*) دشنت مسيرة هذا المشروع العالمية. وكتب إدوارد سعيد (Said 1988, v) تصديرًا لهذا المجلد وصف فيه بيان جحا المتعلّق بأهداف **دراسات التابع** بأنه "متمرد فكريًا". واختيرت مقالة غاياتري سيفاك "تفكيك التاريخ" (Spivak 1988) التي سبق أن نُشرت في المجلد السادس في عام 1986 وفي ظلّ رئاسة تحرير جحا، كمقدمة لهذه المختارات. ممّلت مقالة سيفاك هذه، مع مقالة

19 ثمة تفصيل لإستراتيجيات القراءة عند جحا في مقاله المنشورة في Guha and Spivak 1988 كما أنها مبنوثة في أنحاء كتابه **الأوجه الأوليّة**.

20 للإنصاف، فإنّ طومسن لا يكتفي بالكتابة عن "أصوات تصرخ من الماضي" - "ليس صوت المؤرّخ، لاحظوا رجاءً؛ بل أصواتهم" - إذ إنّ لديه الكثير أيضًا مما يقوله عن كيفية استنتاج المؤرّخين مصادرهم بغية الإصغاء إلى أصوات التاريخ الضائعة.

21 أفضل مثال على ذلك مقالة جحا في (Guha and Spivak 1988). انظر أيضًا تقديم شاكراפורتي سيفاك للمجلد ذاته.

22 انظر بيان جحا (Guha 1988)، في تقديمه *Subaltern Studies VI*.

مراجعةٍ نشرتها روزاليند أوهانلون Rosalind O'Hanlon في الوقت ذاته تقريباً (1988 O'Hanlon)، نقدًا مهمًا لدراسات التابع ترك أثره الخطير في المسار الفكري اللاحق للمشروع. أشارت كلُّ من سيبفاك وأوهانلون إلى غياب قضايا الجندر عن دراسات التابع. كما قدّمنا نقدًا جوهريًا للتوجّه النظري للمشروع. وأشارتنا، في الواقع، إلى أنّ التأريخ في دراسات التابع يعمل عمله من خلال فكرةٍ عن الذات - فكرة "جعل التابع صانعًا لمصيره" - بعيدة كلِّ البعد عمّا سبق أن تولّاه المفكّرون البنيويون من نقدٍ لفكرة الذات ذاتها. وكانت سيبفاك في مقالتها الشهيرة "هل يمكن للتابع أن يتكلّم؟" (1994 Spivak)، وهي قراءة نقدية متحدية لحوار بين ميشيل فوكو وجيل دولوز Gilles Deleuze، قد طرحت بقوة هذه الأسئلة وسواها من خلال اعتراضات تفكيكية وفلسفية على أيّ برنامج مباشر يرمي إلى "ترك التابع يتكلّم".

حاول باحثو دراسات التابع منذ ذلك الحين أخذ هذه الانتقادات على محمل الجدّ وتدبرها. وجرى شيء من تلافي الاتهامات المتعلقة بغياب قضايا الجندر عن دراسات التابع وعدم اهتمامها بالبحوث النسوية في مقالات مؤثرة كتبها راناجيت جحا وبارتا شاترجي، وفي مساهمات قدمتها سوزي ثارو Susie Tharu وغيرها عن النظرية النسوية المعاصرة في الهند⁽²³⁾. وفي كتابه **الفكر القومي والعالم الكولونيالي** (1986)، طبّق بارتا شاترجي بشكلٍ خلاق منظور إدوارد سعيد والمنظور ما بعد الكولونيالي على دراسة القوميات غير الغربية، واستخدم الهند مثالاً على ذلك. وسّع هذا الكتاب انتقادات جحا للتأريخ القومي لتغدو نقدًا ألمعيًا ومكتملاً للفكر القومي ذاته. ومع عمل شاترجي هذا، ثم مع عمل جيانيندرا باندي عن تقسيم الهند في عام 1947، أمكن القول بحقّ إنّ النقد ما بعد الكولونيالي أصبح نقدًا ما بعد قوميّ أيضًا. ويمكن تتبع الأثر الذي تركه الفكر التفكيكي وما بعد الحديث في دراسات التابع من خلال الطريقة التي أعلت بها أعمال جيانيندرا باندي وبارتا شاترجي وشهيد أمين في تسعينيات القرن العشرين من شأن فكرة الجزء على حساب فكرة الكلّ أو الكلية. وشكّك كتاب باندي **بناء الطائفية في شمال الهند الكولونيالي** (1991) ومقالته في 1992 "دفاعًا عن الجزء"؛ وكتاب شاترجي في عام 1994 **الأمة وأجزاؤها**؛ وكتاب أمين التجريبي المحتفى به على نطاق واسع **الحديث، الذاكرة، الاستعارة** (1995)، على أسسٍ أرشيفية ومعرفية، حتى بإمكانية بناء تاريخ قومي كلّي لدى سرد سياسات حياة التابعين. وكان طبيعيًا أن تؤدي هذه الخطوة إلى سلسلة من الكتابات التي كتبها باحثو دراسات التابع ووضّعوا فيها قيد الاستقصاء النقدي التاريخ ذاته بوصفه شكلاً أوروبيًا من أشكال المعرفة. كما قدّم براكاش وجحا وشاترجي وأمين وأجاي سكاريا وشايل مايارام Shail Mayaram وغيرهم مساهمات مهمة في تحليل "الخطاب الكولونيالي"⁽²⁴⁾. وأتمّ جيان براكاش Gyan Prakash مؤخرًا دراسةً لخطاب العلم في الكتابات القومية الهندية تبدي اتفاقًا عميقًا مع أفكار هومي بابا⁽²⁵⁾.

أين تقف دراسات التابع اليوم، سواء كسلسلة أم كمشروع؟ يبدو أنها تقف عند تقاطع مسارات مختلفة شتى. كان المشروع الأصلي - مفهومًا هنا على أنه مشروعٌ يُقيم فصلًا نسبيًا بين تاريخ رأس المال وتاريخ السلطة - قد تطور وتعزز من خلال عمل المجموعة. وما دراسة ديفيد أرنولد للكولونيالية البريطانية في الهند من حيث تواريخ ممارساتها الجسدية المتنازعة، **استعمار الجسد** (1993)؛ ودراسات ديفيد هارديمان للثقافة السياسية والاقتصادية في حياة التابعين العالقين في أشكال ناشئة من الرأسمالية في ولاية غوجارات الهندية، **مجيء**

23 انظر، مثلًا ("Chandra's Death," Guha) الذي نُشر في الأصل في **دراسات التابع V** وأعيد نشره في (62-34 Guha 1998)؛ وانظر أيضًا: Partha Chatterjee, "The Nationalist Resolution of the Woman Question," reprinted as "The Nation and Its Women" in Chatterjee 1994; and Susie Tharu and Tejaswini Niranjana, "Problems for a Contemporary Theory of Gender" in Amin and Chakrabarty 1996, 232-260.

24 قاد براكاش الجدل حول التواريخ غير التأسيسية في مقالتيه الشهيرتين "كتابة تواريخ العالم الثالث ما بعد الاستشراقية: منظورات من التأريخ الهندي" (1990) و"النقد ما بعد الكولونيالي والتأريخ الهندي" (1992). وتعدّ مقالة جحا "تأريخ هندي للهند: نتائج هيمنية لأجندة من القرن التاسع عشر" المنشورة في (1997 Guha)؛ والفصل الموسوم "الأمة وضروب ماضيها" ضمن (1994 Chatterjee)؛ ومقالة باندي "دراسات التابع: من نقد القومية إلى نقد التاريخ" (غير منشورة)؛ ومقالة أمين "تواريخ بديلة: نظرة من الهند" (غير منشورة) مساهمات في جدالات حول التاريخ ومكانة المعرفة التاريخية أنتجتها **دراسات التابع**. انظر بهذا الصدد أيضًا تناول شايل مايارام للذاكرة والتاريخ في مقالته "الكلام والصمت وقيام العنف التقسيمي في ميوات"، وذلك في (1996 Chakrabarty)؛ وانظر كذلك (Ajay, Hybrid Histories) الذي يصدر قريبًا.

25 يحلل كتاب براكاش القادم خطابات العلم والحداثة في الهند الكولونيالية؛ انظر أيضًا مقالته: "Science between the Lines," in Amin and Chakrabarty, 1996.

ديفي (26) 1987 وإطعام البانيا 1996⁽²⁷⁾؛ ودراسة غوتام بادرا لعدد من النصوص ذات الصلة بالمجتمع الفلاحي في بنغال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، **إيمان ونيشان** (1994) سوى أمثلة تُصاغ فيها إمكانيات المشروع النظري الأصلي وتوضّح من خلال أمثلة تاريخية، ملموسة.

لا بد من الاعتراف، في الوقت ذاته، بأنّ **دراسات التابع** تجاوزت الأجددة التاريخية الأصلية التي وضعتها لنفسها في أوائل ثمانينيات القرن العشرين. وكما سبق أن قلت، بات لهذه السلسلة الآن موقع علمي وحتى إقليمي في الدوائر التي بلغتها. وعاد هذا التوسّع خارج مجالات التاريخ الهندي على السلسلة بكلّ من الثناء والنقد. ويكاد كثيرٌ من النقاش يتبع خطوط الجدل العالمي المتواصل بين الماركسيين من جهة وما بعد الحدائين من جهة أخرى. ومثل الماركسيين في كلّ مكان، يلقي الماركسيون الهنود التهمة التي مفادها أنّ الإغلاء ما بعد الحدائي من شأن الجزء في تاريخ التابع يضرب بقضية وحدة المضطهدين. ويعتقد كثير من معارضي **دراسات التابع** الماركسيين أنّ مثل هذه الوحدة تتعزز بالتحليلات الاجتماعية التي تجمع معاً شتى "جماهير" المضطهدين باكتشافها أسباباً عالمية شاملة تقف وراء اضطهادهم. ويزداد هذا الجدل تعقيداً في الهند مع تسنّم الأحزاب والمنظمات الأصولية الهندوسية سدّة السلطة السياسية. وكثيراً ما يزعم منتقدو **دراسات التابع** أنّ ما أطلقتها السلسلة من نقد المركزية الأوروبية وعقلانية ما بعد التنوير، متضاداً مع ما أطلقه كتّاب هنود مثل أشيز ناندي من نقد "العلمانية" و"الحدائة"، انتهى في النهاية إلى توفير الذخيرة الفكرية للأحزاب الهندوسية اليمينية الكارهة للمسلمين. ويردّ المدافعون عن **دراسات التابع** مشيرين إلى أنّ ما جزأ المجال العام - في الهند وسواها - إنّما هو ضغط الديمقراطية؛ ولا يمكن توحيد ذلك المجال من خلال ماركسية تصرّ على اختزال تجارب الاضطهاد والتهميش المتنوعة الكثيرة في محور واحد هو محور الطبقة. ويضيف هؤلاء المدافعون أنّ التوصل إلى منظور نقدي حيال أشكال المعرفة الأوروبية هو جزء من استنطاق نقدي لإرثها الكولونيالي يجب أن يقوم به المثقفون ما بعد الكولونياليين. وهم يصرون على أنّ نقدهم للقومية لا يشترك في شيء مع الشوفينية القومية لدى الأحزاب الهندوسية.

لا يسعني هنا أن أكون منصفاً وأقوّم هذا الجدل، الأمر الذي من شأنه أن يمضي بنا أبعد من نطاق المناقشة الحالية. كما أشعر بأنّ الأوجه السجالية في هذا الجدل بلغت في إبراز الخلافات بين الطرفين. كان هدفي من هذه المقالة دحض التهمة التي ترى أنّ **دراسات التابع** ضلّت سبيلها الأصلي جزأ رفقة سوء التي أقامتها مع النظرية ما بعد الكولونيالية. وحاولت أن أوضح من خلال مناقشة ما كتبه جحا في ثمانينيات القرن العشرين بعض الصلات الضرورية بين الأهداف الأصلية لـ **دراسات التابع** والمناقشات الحالية للوضع ما بعد الكولونيالي. ذلك أنّ **دراسات التابع** لم تكن أخذاً لطرائق البحث التاريخي التي سبق أن صاغتها تقاليد "التاريخ من أسفل" الماركسية المتروبولية وتطبيقاً لها على مواد هندية. صحيح أنّ دراسات التابع كانت في جانب منها سلبية هذا النسب، لكن طبيعة الحدائة السياسية في الهند الكولونيالية جعلت من هذا المشروع في كتابة التاريخ شيئاً لا يقلّ عن نقد فرع التاريخ الأكاديمي ذلك النقد الملزم الذي لا مناص منه⁽²⁸⁾.



26 "ديفي"، كلمة سنسكريتية تعني الإلهة في الهندوسية، في حين تعني كلمة "ديفا" الإله. (المترجم)

27 البانيا طائفة حرفية من التجار والصارفة والمقرضين وسماسرة الحبوب والتوابل، وفي الزمن المعاصر أصحاب المشاريع التجارية على اختلافها. تستخدم الكلمة في البنغال خصوصاً وفي الهند بوجه عام، حيث تنطبق على طوائف حرفية بعينها. (المترجم)

28 يجد القارئ عرضاً مفصلاً لهذه النقطة في كتابي القادم **ترييف أوروبا: الفكر ما بعد الكولونيالي والاختلاف التاريخي**.

قائمة المصادر والمراجع

- Amin, Shahid. 1995. *Event, Memory, Metaphor: Chavri Chavra, 1922-1992*. Berkeley: University of California Press.
- Amin, Shahid, and Dipesh Chakrabarty, eds. 1996. *Subaltern Studies IX*. Delhi: Oxford University
- Amin, Shahid, and Gyan Pandey, eds. 1996. *Nimnavarga prasang* (in Hindi). Delhi: Raj Publications.
- Arnold, David. 1977. *The Congress in Tamilnadu: National Politics in South Asia, 1919-1937*. New Delhi: Manohar.
- ————. 1993. *Colonizing the Body: State Medicine and Epidemic Diseases in Nineteenth-Century India*. Berkeley: University of California Press.
- Beverley, John, José Oviedo, and Michael Aronna, eds. 1993. "The Postmodernism Debate in Latin America" (special issue). *Boundary 2* 20, no. 3.
- Bhadra, Gautam. 1994. *Iman o nishan: Unish shotoke bangaly krishak chaitanyer ek adhyay, c. 1800-1850* (in Banglay). Calcutta: Subarnarekha for the Centre for Studies in Social Sciences.
- Chakrabarty, Dipesh. 1992. "Marxism and Modern India." In Ryan 1992.
- ————. Forthcoming. *Provincializing Europe: Postcolonial Thought and Historical Difference*. Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Chandra, Bipan. 1969. *The Rise and Growth of Economic Nationalism in India: Economic Policies of Indian National Leadership, 1880-1905*. Delhi: People's Publishing House.
- ————. 1979. *Nationalism and Colonialism in Modern India*. New Delhi: Orient Longman.
- Chatterjee, Partha. 1986. *Nationalist Thought and the Colonial World*. London: Zed.
- ————. 1994. *The Nation and Its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories*. Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Chatterjee, Partha, and Gautam Bhadra, eds. 1997. *Nimnabarger itihash* (in Bengali). Calcutta: Ananda Publishers.
- Cohn, Bernard S. 1988. *An Anthropologist among the Historians and Other Essays*. Delhi: Oxford University Press.
- Cusicanqui, Silvia Rivera, and Rossana Barragán, comps. 1998. *Debates post coloniales: Una Introducción a los estudios de la subalternidad*. La Paz: Historias, Sephis, Aruwiwiri.
- Desai, A. R. 1966. *Social Background of Indian Nationalism*. Bombay: Asia Publishing House.
- Dirlik, Arif. 1996. "The Aura of Postcolonialism: Third World Criticism in the Age of Global Capitalism." In *Contemporary Postcolonial Theory: A Reader*, edited by Padmini Mongia. London: Arnold.
- Gallagher, John, Gordon Johnson, and Anil Seal, eds. 1973. *Locality, Province, and Nation: Essays on Indian Politics, 1870-1940*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Gramsci, Antonio. 1973. *Selections from the Prison Notebooks*. Translated and edited by Quintin Hoare and Geoffrey Nowell-Smith. New York: International Publishers.
- Guha, Ranajit. 1983. *Elementary Aspects of Peasant Insurgency in Colonial India*. Delhi: Oxford University Press.

- —————. 1997. *Dominance without Hegemony: History and Power in Colonial India*. Cambridge: Harvard University Press.
- —————, ed. 1982. *Subaltern Studies I: Writings on South Asian History and Society*. Delhi: Oxford University Press.
- —————, ed. 1984. *Subaltern Studies III: Writings on Indian History and Society*. Delhi: Oxford University Press.
- —————, ed. 1988. *Subaltern Studies VI*. Delhi: Oxford University Press.
- —————, ed. 1998. *A Subaltern Studies Reader*. Minneapolis: University of Minnesota Press.
- Guha, Ranajit, and Gayatri Chakravorty Spivak, eds. 1988. *Selected Subaltern Studies*. New York: Oxford University Press.
- Hardiman, David. 1981. *Peasant Nationalists of Gujarat: Kheda District*. Delhi: Oxford University Press.
- —————. 1987. *The Coming of the Devi: Adivasi Assertion in Western India*. Delhi: Oxford University Press.
- —————. 1996. *Feeding the Baniya: Peasants and Usurers in Western India*. Delhi: Oxford University Press.
- Hobsbawm, E. J. 1978. *Primitive Rebels: Studies in Archaic Forms of Social Movement in the Nineteenth and Twentieth Centuries*. Manchester: Manchester University Press.
- Kumar, Kapil. 1984. *Peasants in Revolt: Tenants, Landlords, Congress, and the Raj in Oudh, 1886-1922*. New Delhi: Manohar.
- Low, D. A. 1968. *Soundings in Modern South Asian History*. Canberra: Australian National University Press.
- —————, ed. 1977. *Congress and the Raj*. London: Heinemann. Mayaram, Shail. 1996. "Speech, Silence, and the Making of Partition Violence in Mewat." In Amin and Chakrabarty 1996.
- Morris, Morris David, and Dharma Kumar, eds. 1969. *Indian Economy in the Nineteenth Century: A Symposium*. Delhi: Indian Economic and Social History Association.
- Nehru, Jawaharal. [1936] 1962. *India's Freedom*. London: Allen and Unwin.
- O'Hanlon, Rosalind. 1988. "Recovering the Subject: Subaltern Studies and Histories of Resistance in Colonial South Asia." *Modern Asian Studies* 22: 189-224.
- Pandey, Gyanendra. 1978. *The Ascendancy of the Congress in Uttar Pradesh, 1926-1934: A Study in Imperfect Mobilization*. Delhi: Oxford University Press.
- —————. 1991. *The Construction of Communalism in Colonial North India*. Delhi: Oxford University Press.
- —————. 1992. "In Defense of the Fragment: Writing about Hindu-Muslim Riots in India Today." *Representations* (winter): 27-55. Reprinted in Guha 1998.
- Prakash, Gyan. 1990. "Writing Post-Orientalist Histories of the Third World: Perspectives from Indian Historiography." *Comparative Studies in Society and History* 32, no. 2: 383-408.

- —————. 1992. "Postcolonial Criticism and Indian Historiography." *Social Text* 31/32: 8-19.
- —————. 1996. "Science between the Lines." In Amin and Chakrabarty 1996.
- Raychaudhuri, Tapan. 1979. "Indian Nationalism as Animal Politics." *Historical Journal* 22: 747-63.
- Ryan, Alan, ed. 1992. *After the End of History*. London: Collins and Brown.
- Said, Edward. 1988. "Foreword." In Guha and Spivak 1988.
- Sanyal, Hitesranjan. 1994. *Swarajer Pathe* (in Bengali). Calcutta: Papyrus.
- Sarkar, Sumit. 1997. *Writing Social History*. Delhi: Oxford University Press.
- Seal, Anil. 1968. *The Emergence of Indian Nationalism: Competition and Collaboration in the Later Nineteenth Century*. Cambridge: Cambridge University Press.
- —————. 1973. "Imperialism and Nationalism in India." In Gallagher 1973.
- Seth, Sanjay. 1995. *Marxist Theory and Nationalist Politics: The Case of Colonial India*. New Delhi: Sage Publications.
- Siddiqi, Majid. 1978. *Agrarian Unrest in North India: The United Provinces, 1918-1922*. Delhi: Vikas.
- Skaria, Ajay. 1999. *Hybrid Histories*. Delhi: Oxford University Press. Forthcoming.
- Spivak, Gayatri Chakravorty. 1988. "Subaltern Studies: Deconstructing Historiography." In Guha and Spivak 1988.
- —————. 1994. "Can the Subaltern Speak?" In *Colonial Discourse and Postcolonial Theory: A Reader*, edited by Patrick Williams and Laura Chrisman. New York: Columbia University Press.
- Tharu, Susie, and Tejaswini Niranjana. 1996. "Problems for a Contemporary Theory of Gender." In Amin and Chakrabarty 1996.
- Thomas, Keith. 1963. "History and Anthropology." *Past and Present* 24: 3-18.
- Thompson, E. P. 1979. *The Poverty of Theory and Other Essays*. London: Merlin Press.
- Weber, Eugen Joseph. 1976. *Peasants into Frenchmen: The Modernization of Rural France, 1870-1914*. Stanford, CA: Stanford University Press.